متى تأتي الحرية؟
مستقبل العالم العربي*

برنارد لويس**

مع نهايات القرن العشرين، بدا أنّ العالم العربي يتجه إلى تغييرٍ كبير. وفي معظم القرنين الماضيين كانت البلاد العربية تخضع للاستعمار الأوروبي، كما كانت قبلها ولعدة قرون تخضعُ لسيطرةٍ غير عربية هي في الغالب السيطرة الإسلامية العثمانية. وبعد رحيل المستعمرين الأوروبيين صار العالم العربي ساحة صراع بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي خلال الحرب الباردة. وانتهت الحرب الباردة بسقوط الاتحاد السوفياتي عام 1991م، فتفككت شبكات السيطرة المزدوجة. فأوروبا التي سيطرت طويلاً في العالم العربي، ما عادت تلعب دوراً مؤثّراً. وبالنظر للثروة البترولية لدى العرب، والهجرة العربية إلى أوروبا صار السؤال عن الدور الذي سيلعبه العرب هناك. وتراجع النفوذ الروسي في العالمين العربي والإسلامي بعد سقوط الاتحاد السوفياتي، لكنْ بسبب القُرب الجغرافي، وكثرة المسلمين بروسيا؛ فإنّ الطرفين لا يستغني أحدهما عن الآخَر. وبخلاف الأوروبيين والروس فإنّ الولايات المتحدة ما تزال تلعب دوراً في العالم العربي. ففي الحرب الباردة كانت تصارع النفوذ السوفياتي. وفيما بعد الحرب الباردة كانت الولايات المتحدة تتدخل للمساعدة (مثل التدخل في لبنان 1983/1982م)، أو إنقاذ بلد عربي من جاره (الكويت من العراق 91/1990م). لكنّ عرباً كثيرين كانوا وما يزالون يعتبرون التدخلات هذه أعمالاً إمبريالية. ويرون أنّ الولايات المتحدة خَلَفَتْ فرنسا وبريطانيا وروسيا في

---

* ترجمة عن: Bernard Lewis, Free at last? In Foreign Affairs. March/ April 2009, PP. 77-88.

** أستاذ دراسات الشرق الأوسط بجامعة برنستون سابقاً، وأحد كبار المتخصصين في التاريخ الإسلامي .

في الاستعمار والهيمنة. وقد أدت التدخلات إلى هجمات على المصالح والمنشآت الأميركية العسكرية والمدنية في الثمانينات والتسعينات. وكانت أميركا تردُّ أولاً بالتذمر والانسحاب مثلما حدث في لبنان عام 1983م وفي مقديشو عام 1993م. وربما شجّع ذلك المتشددين! ولذلك عندما هوجمت في 11 سبتمبر عام 2001م ردَّت بالهجوم على أفغانستان ثم على العراق لمعاقبة المعتدين!

وهناك أطرافٌ أخرى تملك اهتمامات بالعالم العربي. وبخاصةٍ تركيا وإيران. وفي حين ظلّت تركيا حذِرةً بسبب تجربتها التاريخية في المنطقة؛ فإنّ إيران بعد الثورة، ولزيادة التأثير ومناطق النفوذ اندفعت إلى داخل العالم العربي. ويُضافُ إلى هذين القطبين الهند والصين الناهضتان، ولهما علاقاتٌ تاريخيةٌ بالمنطقة، وهما مهتمتان الآن بها.

تحدي السلام: وتغيرت خريطة العالم العربي بقوة بعد الحرب الباردة. فما عادت هناك مساعٍ للوحدة العربية. وما أَصْغت أي جهةٍ سلطويةٍ عربيةٍ لاختيارات الشعب. وفي الوقت نفسه ازدادت أهمية الهوية القومية، مثل الأكراد في العراق وإيران وتركيا، والبربر في شمال إفريقيا. وهذه مشكلاتٌ جديدةٌ نسبياً. وقد استقلت أكثر اجزاء المنطقة الكردية بعد ضربة صدام عام 1992م، لكنّ الاستقلال الكردي الكامل دونه عقبات. المشكلات الأخرى الكبيرة للعالم العربي هي القضية الفلسطينية. والوضْع الحالي تعود جذروه إلى القرارات البريطانية والدولية لإقامة »وطن قومي« للشعب اليهودي على أرض فلسطين. وقد قاوم العرب بالإجماع هذه القرارات. وقد كانت هناك عروض عامي 1937 و 1947م لدولة عربية على أرض فلسطين، لكنّ الفلسطينيين والعرب عارضوها لأنهاتعني الاعتراف بالدولة اليهودية في فلسطين. وما يزال الصراع دائراً منذ أكثر من ستين عاماً بعد قيام الدولة العبرية. وهو يدور بين الدول تارةً، وبين إسرائيل وحركات التحرير تارةً أُخرى. وبدأت علمية السلام بإقبال الرئيس السادات عام 1979م على توقيع اتفاقية سلام مع إسرائيل. وفي العام 1994م فعل الملك حسين الأمر نفسه. وأدت المباحثات بين منظمة التحرير وإسرائيل إلى انسحاب إسرائيلي من بعض الأراضي المحتلة عام 1967م، وقيام السلطة الفلسطينية عليها بمقتضى اتفاق أوسلو عام 1993م. وفي العالم

العربي اليوم أصوات تتقبل الواقع، وأصواتٌ أُخرى تريد متابعة النضال المسلَّح، وحظوظ السلام تتوقف على علوّ كلمة المعتدلين من الطرفين، الإسرائيلي والفلسطيني.

التقدم في فراغ: ويتسبب الاقتصاد والأوضاع المعيشية بالتدريج في مشكلاتٍ حقيقيةٍ رغم التدفق المالي الناجم عن بيع النفط والغاز. وتُظهر دولٌ عربيةٌ حرصاً ملحوظاً على تطوير صناعات أخرى ومجالات أُخرى، وقد نجحت بالفعل في ذلك . بيد أنّ الوضع العربي العامّ ما يزال يتطلب الكثير كما أظهرتْه تقارير التنمية الأربعة بين عامي 2002 و2006م. فصادرات الدول غير النفطية تُظهرُ انخفاضاً غير معقول، كما أنّ الكتب المترجمة أو المطبوعة ضئيلة العدد مقارنةً بالدول والثقافات الأُخرى. ثم إنّ أوضاع العلوم والتكنولوجيا وبراءات الاختراع ليست حَسَنة، إضافةً إلى انخفاض مستوى التعليم الجامعي سواءٌ الذي ترعاه الدولةُ أو الآخَر الخاصّ. ولا تُعتبر أحوالُ النساء مُرْضية من سائر النواحي، في أكثر البلاد العربية. وكذلك أحوال المهاجرين الذين أتوا للعمل بدول الخليج أو الدول العربية الأخرى.

إنّ كلَّ هذه الأمور تمثّل مشكلاتٍ تتعاظم. لكنْ أودُّ التنبيه إلى ظهور تكنولوجيا الاتصالات وشبكاتها، والتي تُسهّل وصول المعلومات والحفاظ عليها. وقد كان لدى المسلمين فريضتان الصلاة والحج، وكلاهما مصدرٌ من مصادر المعرفة، ما كانا موجودين بأوروبا. وشبكات الاتصال المعاصرة هذه والتي وصلت إليها فئاتٌ عظيمةٌ من الشباب بالإضافة إلى رجال الأعمال، تمثّل عنصراً من عناصر التواصل والتقدم وانتشار المعارف وحريات التعبير. وقد امتد التأثير وانتشر باتجاهات متباينة، منها ما هو ضدّ الأنظمة، ومنها ما هو ضدّ الغرب.

صعود المتطرفين: نظر الغربيون إلى سقوط الاتحاد السوفياتي باعتباره انتصاراً للقيم الغربية. أمّا في العالمين العربي والإسلامي، فما اعتُبر الأمر على هذا النحو. بعضُ الأنظمة رأتْ فيه خُسراناً للحليف الكبير والقوي، أمّا الإسلاميون فرأَوا فيه شاهداً على انتصار الإسلام على الشيوعية من خلال حرب أفغانستان. وقد آن الأوان للاتجاه لضرب الكُفْر الآخر المتمثّل في الولايات المتحدة. وقد ازداد هذا التوُّجُه إلحاحاً بسبب حرب الخليج الثانية عام 1991/1990م، ثم غزو الولايات المتحدة لأفغانستان عام

2001م، وللعراق عام 2003م. وقد عبَّر أُسامة بن لادن زعيم القاعدة عن هذا التوجُّه في إعلانه للتحالف ضد اليهود والصليبيين في فبراير عام 1998م.

أمّا الطرف الآخَر المتصدّي لتسنُّم زعامة المسلمين فهو الجمهورية الإسلامية الإيرانية. فقد مثّلت ثورة العام 1979م في إيران تغييراً في موازين القوى في المنطقة كلّها لغير صالح الولايات المتحدة. ومنذ البداية أرات تصدير الثورة باتجاه العالم الإسلامي. وقد تأخر ذلك بعض الشيئ بسبب الحرب العراقية- الإيرانية (1980-1988م)، ثم عادت الثورة أو دولة الجمهورية الإسلامية فكسبت كثيراً في العالم الإسلامي، وليس بين الشيعة فقط؛ بل وضمن الجمهور السُنّي. على أنّ اليقظة الشيعية المستجدة لا ينبغي تجاهُلُها وبدافعٍ من وجود الجمهورية الإسلامية، واتجاهها لدعم الأقليات الشيعية في العالم كلِّه، ومن ذلك العالم العربي. فلأول مرةٍ في العالم الحديث عاد الموضوع السني/الشيعي ذا أَولوية. وهذا في الوقت الذي تركّز فيه إيران على »التناقُض الأكبر« أي بين المسلمين سنةً وشيعةً، وبين أعدائهم من الإمبرياليين الأميركيين وحلفائهم. في حين يرى عربٌ كثيرون، مع الأنظمة أو مستقلّين؛ أنّ التدخل الإيراني في العالم العربي، يُفرّقُ الكلمة، ويزيد الحساسيات بين السنة والشيعة، ولا يفيد كثيراً في مواجهة الأعداء.

الصراع من أجل المستقبل: في أكثر عقود القرن العشرين سادت أيديولوجيتان في العالم العربي: الاشتراكية والقومية. وما جلبت الاشتراكية العدالة والرخاء، أما القومية فقد أعانت على تحقيق الاستقلال، لكنها ما أعانت على تحقيق الحرية. وجاءت صيغةٌ غربيةٌ للحكم تمثلت في الحزب الواحد والحاكم الأَوحد. ولذلك وفي مطالع القرن الحادي والعشرين، لا تجد هذه الأيديولوجيات والصِيَغ أية شعبية. هناك اليوم أنظمة الولاء، والأُخرى التي تقومُ على فرض الطاعة. وأنظمة الولاء هي الأنظمة التقليدية، بينما تتبع أنظمةُ الطاعة أساليب غربية للضبط والسيطرة. وفي هذا النوع من الأنظمة تُثارُ عادةً دعاياتُ العداء ضد الخارج مثل الصهيونية أو الغرب الإمبريالي. وهناك جماعاتٌ وميولٌ جديدةٌ في العالم العربي تسعى للتمثيل والمشاركة والحريات وإحداث التقدم، لكنها ما تزال فئات صغيرة وغير منظَّمة. وما تزال الأحزابُ الدينيةُ قوية التأثير، ومُزدهرة. وهي غالباً مُعاديةٌ للغرب وقيَمِه. وتدورُ المواجهات الظاهرةُ بين القوى الدينية أو العاملة

باسم الدين، والأنظمة. لكنّ المواجهات الحقيقية في مجالات الأهداف والقيم والخيارت إنما تدورُ بين القوى ذات الثِقَل الشعبي/الديني، والأُخرى ذات الأهداف الديموقراطية والليبرالية. وتزعم الأنظمة القائمة أنها إن فقدت السلطة، فسيكون ذلك لحساب الحركات الدينية. ولبنان كان نموذجاً لنظامٍ قائمٍ على الحرية والديموقراطية. لكنه عانى طويلاً بسبب فضائله وليس بسبب أخطائه. وصحيحٌ أنّ السوريين جَلَوا عنه، لكنهم ما يزالون ذوي نفوذ فيه. كما أنّ حزب الله يشكّل تحدياً للدولة وللاستقرار بسلاحه وصِلاته الإقليمية.

هناك اليوم خياران يتصارعان في الشر ق الأوسط. الخيار الذي يعتبر مستقبل المنطقة في مصارعة الغرب وتابعيه وتطبيق شرع الله. والخيار الآخَرُ يرى أنّ سوء الأوضاع يقتضي الاتجاه إلى الحرية والانفتاح والديموقراطية. واليوم فإنّ كلا الاتجاهين حاضر بالمنطقة، ولا شك أنّ المستقبل يتوقف إلى حدٍ كبيرٍ على مصير كلٍ منهما.